# تاريخ التفكير الجمالي

## قسم الفلسفة_ السنة الثانية د. بشرى عباس

## التفكير الجمالي في العصر الهيلينستي و الروماني

- ***المحاضرة الأولى***

يطلق اسم العصر الهيلينستي على القرون الثلاثة التي تلت الإسكندر المكدوني عام ٣٢٣ ق.م في إيران. و في هذه الحقبة انتشرت الثقافة اليونانية في بلدان الشرق، و امتدت من الهند إلى روما و إسبانيا، و شملت بلاد الرافدين و مصر و سوريا، و كافة بلدان حوض المتوسط، و انتقل مركز الفن و الفكر من أثينا إلى بعض مدن الشرق و الغرب، و كانت أداة الثقافة هي القونية اللهجة الدارجة من اللغة اليونانية. فمع فتوحات الإسكندر المقدوني انفتحت شعوب العالم آنذاك بعضها على بعض، و انمحت بينها الفوارق القومية و الثقافية، و ألغيت الحدود الإقليمية، و خلق هذا الوضع ما يمكن أن يسمى بالمواطن العالمي، حيث أصبح في مقدور أي إنسان من أي مملكة أو إقليم أن يكون مواطناً في أي مدينة يشاؤها، إذ صار الانتماء إليها و ليس على أساس الجنس و القومية . و قد أدى هذا الاختلاط إلى التبادل الثقافي بين الغرب اليوناني و شعوب الشرق و إلى التلفيق بين مختلف التيارات الثقافية و الفنية، و نشأت حضارة مهجنة ذات طابع خاص ( التشكل الكاذب) هي الحضارة الهيلينستية. و قد كان الاتجاه التلفيقي هو الصفة المميزة للفكر الهيلينستي في الفلسفة و الفن. و تشكل الذوق الفني الهيلينستي على نحو يخضع فيه لجميع المؤثرات و يقبلها بدون تمييز، و امتزج بذلك التراث الكلاسيكي اليوناني في الفن بالأسلوب اليومي البسيط و بالنزعة الواقعية و اقترنت النزعة التلفيقية بامتزاج مختلف الفنون و القوالب الفنية و أدى ذلك إلى ظهور أساليب فنية.

و لكن على الرغم من المواطنية العالمية و احترام كل شعب لثقافة الشعوب الأخرى كانت وطأة العبودية و اقتسام الممالك بين حلفاء الاسكندر تثقل كاهل المواطن دون تمييز، كما كانت التمايزات الطبقية تزداد حدة و ضراوة. إزاء هذه الظروف الجديدة و ما نتج عنها على المستويين الثقافي و السياسي كانت ردة الفعل الفكرية هي انكفاء الإنسان على ذاته بحثاً عن الحرية التي فقدها في العالم الخارجي لعله يجدها في عالمه الباطني. فلما فقد الطمأنينة الإيجابية في الخارج بحث في ذاته عن طمأنينة سلبية، إما في الإرادة المتوترة بالجهد و العمل بحسب مقتضى الطبيعة لبلوغ الفضيلة كما فعلت الرواقية، و إما في العطالة و اللامبالاة و الانصراف عن مشكلات الحياة السياسية و اليومية و الاستمتاع بالملذات السلبية الضرورية الطبيعية التي لا تؤدي إلى ألم كما فعلت الأبيقورية. و قد جاءت الرواقية و الأبيقورية معبرتين عن هذه الروح و قدمتا حل بضرورة

التخلي عن التفكير النظري أولآ و الانصراف إلى العمل و الأخلاق العملية ثانيآ، و لهذا اتجهت تعاليم المدرستين اتجاهآ عمليآ هدف إلى وضع أخلاق عملية تنعي تحقيق اللذة أو الفضيلة، كما كادت تخلو تعاليمهما من التفكير الجمالي الفلسفي بالمعنى الأفلاطوني أو الأرسطي، فاقتصر هذا التفكير على بعض المسائل اللغوية ذات الصلة بالحاجات اليومية كالمنطق و الخطابة.

المدرسة الرواقية:

من أشهر أعلامها زينون الأكتيومي ( قبرص ٣٣٦_ أثينا ٢٦٤) ثم تلميذه كليانتوس ثم كريزيبوس، إيكتاتوس ثم سنيكا، ثم الامبراطور ماركوس أورليوس. و قد ذهب الرواقيون جميعآ إلى أن الفن تقليد للطبيعة و بنوا آراءهم الجمالية على أساس فلسفتهم العامة في الأخلاق و نظرية المعرفة، ففي مجال الأخلاق اعتبروا أن الفلسفة الحقيقية هي الفلسفة العملية التي تقوم على العمل المطابق لقوانين العقل الذي يجري بمقتضى قوانين الطبيعة فالفلسفة هي أخلاق و غايتها وضع قوانين للسلوك الإنساني.

و في مجال المعرفة ميزوا بين الصورة الحسية و الإدراك الحسي، فالصورة الحسية صادرة مباشرة عن المحسوسات التي هي أصل كل معرفة و الإحساس هو انطباع أثر المحسوس في النفس، هو تغير يحدث في النفس تحت تأثير موضوعات خارجية، و الإحساس و الصورة الحسية هي أساس كل معرفة، و معيار الصدق و الكذب في المعرفة يتوقف على درجة الاقناع النفسي فما يأتي إلى النفس بقوة و يظهر لها في صورة الاقتناع يكون صادقآ.

و على هذا فإن الفن و الآثار الفنية تقدر قيمتها بمقدار مساعدتها الإنسان على بلوغ الفضيلة، و بمقدار درجة تأثيرها الحسي في النفس، أو انفعال هذه بها. و من هنا فرق الرواقيون بين اللفظ كلفظ يسمع و بينه كلفظ يدل على المعنى، و لما كانت النفس عندهم مادية و تتأثر بصوت اللفظ المسموع لهذا أولوا عنايتهم إلى دراسة فن الكلام و الخطب و الإيقاع اللفظي، و كيف يجب إحداث التأثير على النفس لكي تسلك سبيل العمل و الفضيلة و يكون الإنسان بهذا أكثر كمالآ.

رفضوا أن يكون للإبداع الفني و الآثار الفنية أي تأثير بالحياة الاجتماعية و أن يكون للحياة الاجتماعية أي دور في الإبداع الفني.

المدرسة الأبيقورية نسبة إلى أبيقور (٣٤١_٢٧١ ق.م)

لم يقدم الأبيقوريون بحوثآ نظرية في التفكير الجمالي بل تناولوا بسطحية بعض مسائل الفن كالموسيقا و الخطابة و ذهبوا إلى أن الموسيقا تعطي لذة شعورية و لكنها لا تملك أي تأثير على إرادة الإنسان و شعوره كما أنها لا تملك أي مضمون اجتماعي.

و أهم الأبيقوريون الذين تحدثوا في الفن و الخطابة : فيلودامس و لوكراسيوس، وضع فيلودامس كتاب (الخطابة) و حاول الإجابة على السؤال: هل الخطابة فن؟ و قصد الرد على السوفسطائيين

الذين زعموا أن الخطابة تستخدم في كسب القضايا بالمحاكم و كسب الرأي العام أمام مجالس الشعب، كان أبيقور قد أشار إلى أن الخطابة فن لا ينفع رجل السياسة، كما قصد الرد على بعض الأبيقوريين المغالين الذين زعموا أن أبيقور لم يعتبر الخطابة فنآ. و وضغع فيلودامس كتابآ آخر في الموسيقى، و يذهب إلى ضرورة التمسك بالعقل و رفض العادات و الأفكار و هو يشك في أن يكون الغناء قادرآ على أن يضيف شيئآ إلى رصانة الأفكار بالقصيدة.

و أما لوكراسيوس( ٩٩_٥٥ ق.م) فقد ذهب إلى أن الفن يحقق لذة و هو وسيلة لتعميم المعرفة بطبائع الأشياء، و أشار لأن الفن نشأ بواقع الحاجة إليه، و ظهرت فنون الموسيقا و الرقص و الغناء مع نطور الجماعات البشرية و كانت هذه الفنون أول ظهورها كتقليد للطبيعة من خلال تقليد صوت الإنسان لأصوات الريح و الطيور، مع الزمن اهتدى الإنسان لاختراع الأنغام الموسيقية. و قد ساق آراءه الفلسفية و الجمالية في قصيدته (طبائع الأشياء) الرشيقة التي تتضمن دعوة الإنسان لأن يدرب نفسه على الشعور بالطمأنينة و البرهان على فناء النفس و دفع الخوف من العدم و الموت و رتابة الأشياء الأزلية.